أحاديث إصلاح القلوب

(٥٢)

الإخبات

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله؛ صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد:

فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو يَقُولُ: «**رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَى لِي، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي لَكَ شَاكِرًا، لَكَ ذَاكِرًا، لَكَ رَاهِبًا، لَكَ مِطْوَاعًا، لَكَ مُخْبِتًا** -وفي رواية **إِلَيْكَ مُخْبِتًا**-، **إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي**»[(١)]. رواه التِّرمذيُّ وأبو داود.

الإخبات صفةٌ عظيمة من صفات القلوب، كما قال تعالى: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج:٥٤]. لها عوائد جليلة وبركات متنوِّعة على المؤمن، أثنى الله

(١) رواه أبو داود (١٥١٠)، والتِّرمذيُّ (٣٥٥١)، وابن ماجه (٣٨٣٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.

عَزَّوَجَلَّ على المُتَّصفين بها ثناءً عظيمًا وذكر لهم موعودًا كريمًا وبشارة عظمى بكُلِّ خير في الدُّنيا والآخرة، فجديرٌ بكُلِّ عبد مؤمن أن يعرفها وأن يجاهد نفسه على أن يكون من أهلها تحلِّيًا واتِّصافًا.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخبت في أصل اللُّغة: المكان المنخفض من الأرض، وبه فسَّر ابنُ عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وقتادةُ لفظَ المخبتين وقالا: هم المتواضعون، وقال مجاهد: المخبت المطمئنُّ إلى الله عزَّ وجلَّ قال: والخبت: المكان المطمئنُّ من الأرض، وقال الأخفش: الخاشعون، وقال إبراهيم النَّخعيُّ: المُصَلُّون المخلصون، وقال الكَلْبيُّ: هم الرَّقيقة قلوبهم، وقال عمرو بن أوس: هم الَّذِين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا.

وهذه الأقوال تدور على معنيين: التَّواضع والسُّكون إلى الله عزَّ وجلَّ، ولذلك عُدِّي بـ(إلى) تضمينًا لمعنى الطُّمأنينة والإنابة والسُّكون إلى الله تعالى»[(١)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمخبت المطمئنُّ؛ فإنَّ الخبت من الأرض ما اطمأنَّ فاستنقع فيه الماء، فكذلك القلب المخبت قد خشع واطمأنَّ كالبقعة المطمئنَّة من الأرض الَّتِي يجري إليها الماء فيستقرُّ فيها»[(٢)].

---

(١) مدارج السَّالكين لابن القيِّم (٢/ ٢٠٩).

(٢) الرُّوح لابن القيِّم (ص٢٣٢).

ومَن أراد أن يعرف قدر هذه الصِّفة وعليَّ مكانتها فليتأمَّل قول الله سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج:٣٤]، والقاعدة عند العلماء: «أنَّ المتعلَّق إذا حذف عمَّ وشمل كلَّ خير وفضيلة في الدُّنيا والآخرة»، فالبشارة هنا لم تقيَّد وإنَّما ذُكرت هكذا مطلقة لتتناول كلَّ فضيلة وخير وبركة في الدُّنيا والآخرة.

وليتأمَّل في عظيم ثوابهم عند الله قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [هود:٢٣]، أي: خضعوا له، واستكانوا لعظمته، وذلُّوا لسلطانه، وأنابوا إليه بمحبَّته، وخوفه، ورجائه، والتَّضرُّع إليه، وذكر الإخبات عقِب الإيمان والعمل مع أنَّه داخلٌ فيه مرتِّبًا عليه من الثَّواب ما ذُكر فيه بيانٌ لعظم شأن الإخبات وعظم مكانة المخبتين عند الله، وعظم ثوابهم.

والإخبات ثمرةٌ من ثمار حُسن الإيمان بالقرآن وحي الله عَزَّوَجَلَّ وذِكره الحكيم الَّذِي به تحيا القلوب وتخبت، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٤]؛ ولنتأمَّل في هذين المعطوفين: ﴿فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ﴾ أي: الوحي، ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: أثرًا من آثار حُسن إيمانهم بوحي الله عَزَّوَجَلَّ.

وبهذا يعلم أنَّ الإخبات صفةٌ للقلب؛ فالقلب يخبت إلى الله ويخبت لله جلَّ في علاه كما في الآيتين: ﴿فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ﴾، ﴿وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ [هود:٢٣]، فهو إخباتٌ لله وإخباتٌ إلى الله. وهو كما تقدَّم سكونٌ وطمأنينة وخشوعٌ وخضوع وذلٌّ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فإذا أخبت القلب إلى الله عَزَّوَجَلَّ تحلَّى بجميل الصِّفات وحسِن النُّعوت وطيب الأخلاق والآداب.

وقد وردت هذه الآية في سورة الحجِّ في سياقِ ذكرٍ لأقسام القلوب، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الحج:٥٢-٥٤].

قال ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «جعل الله القلوب ثلاثة أقسام: قاسية، وذات مرض، ومؤمنة مخبتة؛ وذلك لأنَّها إمَّا أن تكون يابسة جامدة لا تلين للحقِّ اعترافًا وإذعانًا أو لا تكون يابسة جامدة.

فـ «**الأوَّل**» هو القاسي وهو الجامد اليابس بمنزلة الحجر لا ينطبع ولا يكتب فيه الإيمان ولا يرتسم فيه العلم؛ لأنَّ ذلك يستدعي محلًّا ليِّنًا قابلًا.

و«**الثَّاني**» لا يخلو إمَّا أن يكون الحقُّ ثابتًا فيه لا يزول عنه؛ لقوَّته مع لينه

أو يكون لينه مع ضعف وانحلال.

فالثَّاني هو الَّذِي فيه مرض، والأوَّل هو القويُّ اللَّيِّن. وذلك أنَّ القلب بمنزلة أعضاء الجسد كاليد مثلًا، فإمَّا أن تكون جامدة يابسة لا تلتوي ولا تبطش أو تبطش بعنف فذلك مثل القلب القاسي، أو تكون ضعيفة مريضة عاجزة لضعفها ومرضها فذلك مثل الَّذِي فيه مرض، أو تكون باطشة بقُوَّة ولين فهو مثل القلب العليم الرَّحيم؛ فبالرَّحمة خرج عن القسوة وبالعلم خرج عن المرض؛ فإنَّ المرض من الشُّكوك والشُّبهات. ولهذا وصف مَن عدا هؤلاء بالعلم والإيمان والإخبات»[(١)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سورة الحجِّ فيها مكيٌّ ومدنِيٌّ وليليٌّ ونهاريٌّ وسفريٌّ وحضريٌّ وشتائيٌّ وصيفيٌّ؛ وتضمَّنت منازل المسير إلى الله بحيث لا يكون منزلة ولا قاطع يقطع عنها. ويوجد فيها ذكر القلوب الأربعة: الأعمى والمريض والقاسي والمخبت الحيُّ المطمئنُّ إلى الله»[(٢)].

وفيها أيضا ذكرٌ لصفات المخبتين الجامعة الَّتِي إن وُجدت في العبد مجتمعةً دلَّت على صدق إخباته إلى الله جلَّ في علاه في قوله سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى

(١) مجموع الفتاوى لابن تيميَّة (١٣/ ٢٧٠).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيميَّة (١٥/ ٢٦٦).

ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [الحج:٣٤-٣٥].

وهي صفاتٌ أربع ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ صفات للمخبتين:

أوَّلها: وجل القلب عند ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، والوجل كما قال العلماء: خوفٌ مع محبَّة وهيبة، فهذه صفة القلب المخبِت إلى الله عَزَّوَجَلَّ أنَّه إذا ذُكر الله عنده وجل قلبه، وهذا الوجل لقلبه ناشئ عن حُسن معرفته بربِّه، كما قال الله جلَّ في علاه: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، أي: بالله.

والصِّفة الثَّانية: الصَّبر على أقدار الله المؤلمة، وما من عبدٍ إلَّا وهو مبتلى بأنواع من البلايا في هذه الحياة الدُّنيا، ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥].

والصِّفة الثَّالثة: إقامة الصَّلاة، أي: حفاظًا عليها وإتيانًا بها قائمة بأركانها وشروطها وواجباتها خضوعًا وخشوعًا وحسن تقرُّب إلى الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والصِّفة الرَّابعة: بذل المال وإنفاقه في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ في وجوه الخير وأبوابه المُتَنَوِّعة من واجبٍ ومستحبٍّ، طيبةً بذلك النَّفسُ راجيةً موعود الله جلَّ في علاه وعظيم ثوابه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فذكر للمخبتين أربع علامات: وجلُ قلوبهم عند ذكره، والوجل خوف مقرون بهيبة ومحبَّة، وصبرُهم على أقداره، وإتيانُهم بالصَّلاة قائمة الأركان ظاهرًا وباطنًا، وإحسانُهم إلى عباده بالإنفاق ممَّا

آتاهم، وهذا إنَّما يتأتَّى للقلب المخبت قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «المخبتين المتواضعين»، وقال مجاهد: «المطمئنين إلى الله»، وقال الأخفش: «الخاشعين»، وقال ابن جرير: «الخاضعين»، قال الزَّجَّاج: «اشتقاقه من الخبت وهو المنخفض من الأرض، وكلُّ مخبت متواضع فالإخبات سكون الجوارح على وجه التَّواضع والخشوع لله»، فإن قيل: كان معناه التَّواضع والخشوع فكيف عُدِّي بـ(إلي) في قوله: ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود:٢٣]؟ قيل: ضُمِّن معنى أنابوا واطمأنُّوا وتابوا، وهذه عبارات السَّلف في هذا الموضع، والمقصود: أنَّ القلب المخبت ضدُّ القاسي والمريض، وهو سبحانه الَّذِي جعل بعض القلوب مخبتًا إليه وبعضها قاسيًا، وجعل للقسوة آثارًا وللإخبات آثارًا، فمِن آثاره القسوة تحريف الكلم عن مواضعه، وذلك من سوء الفهم وسوء القصد وكلاهما ناشئ عن قسوة القلب، ومنها نسيان ما ذُكِّر به وهو ترك ما أمر به علمًا وعملًا، ومن آثار الإخبات وجلُ القلوب لذكره سبحانه والصَّبر على أقداره والإخلاص في عبوديَّته والإحسان إلى خلقه»[(١)].

والإخبات مرتقى يتطلَّب من العبد أن يجاهد نفسه إلى أن تسكن وتطمئنَّ بنزولها منازل المخبتين، ولهذا يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في ثنايا حديثه

(١) شفاء العليل لابن القيِّم (١/ ٣٤٨ - ٣٤٩).

عن منزلة الإخبات: «فالنَّفس جبل عظيم شاقٌّ في طريق السَّير إلى الله عزَّ وجلَّ، وكلُّ سائر لا طريق له إلَّا على ذلك الجبل فلا بُدَّ أن ينتهي إليه، ولكن منهم مَن هو شاقٌّ عليه، ومنهم مَن هو سهل عليه وإنَّه ليسير على مَن يسَّره الله عليه.

وفي ذلك الجبل أوديةٌ وشُعُوب، وعَقَبات ووُهُود، وشَوْكٌ وعَوسَجٌ، وعُلَّيْق وشِبْرِق، ولُصُوصٌ يقتطعون الطَّريق على السَّائرين ولا سيَّما أهل اللَّيل المدلجين، فإذا لم يكن معهم عُدَد الإيمان، ومَصابيح اليقين تتَّقِدُ بزَيت الإخبات، وإلَّا تَعَلَّقَتْ بهم تلك المَوانِع، وتَشَبَّثَتْ بهم تلك القواطع وحالت بينهم وبين السَّير؛ فإنَّ أكثر السَّائرين فيه رجعوا على أعقابهم لمَّا عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته، والشَّيطانُ على قُلَّة ذلك الجَبَلِ -أي: أعلاه- يُحَذِّرُ النَّاسَ مِن صُعُودِهِ وارتفاعِهِ، ويخوِّفُهُم منه؛ فيَتَّفِقُ: مَشَقَّةُ الصُّعود، وقُعُود ذلك المُخَوِّف على قُلَّته، وضَعْفُ عزيمة السَّائر ونيَّته؛ فيتولَّدُ مِن ذلك؛ الانقطاعُ والرُّجُوعُ، والمعصومُ مَن عَصَمَهُ الله.

وكُلَّما رقى السَّائر في ذلك الجبل اشتدَّ به صِياحُ القاطِعِ، وتحذيرُهُ وتخويفُهُ، فإذا قَطَعَهُ وبَلَغَ قُلَّتَهُ؛ انقَلَبَتْ تلك المَخاوف كُلُّهُنَّ أمانًا، وحينئذ يسهل السَّير وتزول عنه عوارضُ الطَّريق ومشقَّةُ عقباتها، ويرى طريقًا واسعًا آمنًا يُفْضِي به إلى المنازل والمناهل وعليه الأعلام وفيه الإقامات قد أُعِدَّت

لركب الرَّحمن.

فبين العبد وبين السَّعادة والفلاح: قُوَّة عزيمة وصبر ساعة وشجاعة نفس وثبات قلب، والفضل بيد الله يؤتيه مَن يشاء والله ذو الفضل العظيم»[(١)].

وعودًا على بدء، جديرٌ بالمؤمن أن يدعو الله عَزَّوَجَلَّ كثيرًا أن يجعله من عباده المخبتين، كما تقدَّم في حديث ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنَّ نبيَّنا ﷺ كان يقول في دعائه: «**رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَى لِي، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي لَكَ شَاكِرًا، لَكَ ذَاكِرًا، لَكَ رَاهِبًا، لَكَ مِطْوَاعًا، لَكَ مُخْبِتًا** -وفي رواية **إِلَيْكَ مُخْبِتًا**-، **إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي**»[(٢)]. وبهذا الدُّعاء الجامع بدأنا وبه نختم، وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.

---

(١) مدارج السَّالكين لابن القيِّم (٢/ ٢١٥).

(٢) رواه أبو داود (١٥١٠)، والتِّرمذيُّ (٣٥٥١)، وابن ماجه (٣٨٣٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.